

حياتنا العقلية

١ تمهيد

كانت لمصر حضارة من أروع الحضارات ، وكان لها نظمات سياسية وقضائية ، وكان بها سلطات دينية قامت على أساس من التقاليد العريقة التي لم يؤثر فيها مؤثر منذ أبعد أزمان التاريخ حتى قيام النصرانية في خوف الامبراطورية الرومانية . فاخذت التقاليد الدينية القديمة تؤثر في نظمات النصرانية تأثيراً ظهر على أشده في فكرة التثليث التي بشها في تضاعيف الدين النصراني ، قدس مصرى في قدس المسيحية .

حدث كل هذا في زمان لم تعرف فيه المدنية الا في بعض بقاع من كورة الارض كبلاد اشور والكلدان وبعض بقاع من الهند والصين . انارت هذه الاقباس في ظلام الانسانية المدهم ، وفي عصور ما عرف فيها غير المصريين أن للعقلية الانسانية حياة تحياها وتظهر بارزه في نظمات ومبادئ اجتماعية وصور من الآداب والفنون . ما عرف هذا في تلك الازمان من غير المصريين الا بضعة شعوب اين مدنيته من مدينة المصريين ، واين نظماتها من نظماتهم ، واين فنونها من فنونهم .

ولقد يعزو بعض الباحثين قيام المدنيات الى اسباب شتى . فمنهم من يعزوها الى طيب المناخ وكثرة المياه او المعادن . ومنهم من يعزوها الى غرائز اختص بها النوع البشرى وصفات جادت بها الطبيعة على بعض الشعوب دون بعض . وهذا يمكن ان يكون صحيحاً الى حد بعيد في قيام الصورة المادية في المدنيات . اما الصور الادبية والفنية فلا بد من ان يكون لها اسباب اخرى غريزية وان كان للطبيعة تأثير غير مباشر فيها . وعندى ان السبب الاقوى في شبوب الصور الذهنية في المدنيات راجع الى ايجاد أساليب جديدة يمكنها الفكر الانساني .

وما اردنا بهذه المقدمة الوجيزة الا ان نستطرد منها الى اثبات ان تغير اساليب الفكر هو السبب الاوحد الذي تفوق من طريقه المصريون في العصور القديمة على غيرهم من الشعوب ، وان عجزهم عن تغيير هذه الاساليب كان السبب في تقاعدهم عن اللاحاق بغيرهم من الشعوب التي استطاعت ان تخلق بتغيير الاساليب القديمة صوراً مدنية جديدة فآتت الصور القديمة في كثير من وجوه الارتقاء .

كذلك نريد ان نثبت ان عجز الشعوب عن تغيير اساليب الفكر ليس يرجع الى نضوب قواهم العقلية او صفاتهم المدنية . فاني اعتقد تمام الاعتقاد بان هذه الصفات انما تكمن في بعض الاحيان وتستكين ، فلا تنشط ولا تعمل تحت تأثير ظروف طارئة غير ثابتة . كغزو اجنبى او سوء حالة الحكم واحتكام الجماهير في الطبقات المنتخاة من مجموع الامة ، واستبداد ينزع اليه الملوك والامراء او خلاف طائفي او نزاع على الملك او غير ذلك من الاسباب التي ليس لها من علاقة مباشرة بالصفات الطبيعية التي تختص بها الافراد ، بل لها الأثر الأكبر في المحيط الذي يحيط بالمعقول والافهام فيفعله بكثير من فاسد النزعات تكمن معها الصفات التي تقوم عليها المدنية ، والتي لا تظهر الا في جولا ينهياً الا لتسود ارقى المبادئ الادبية التي تواضع عليها النوع الانساني

٢ - في التاريخ القديم

مصر القديمة اكبر مثال يضرب لنثبت به حقيقة هذه النظرية . فان التقلبات المدنية التي اتت مصر في مختلف عصور تاريخها القديمة لشاهدة على أن الجو الذي يحيط بالافراد والنظامات كأن له اكبر الأثر في تكييف الصورة المدنية التي تقوم في عصر من العصور .

ليس من المعقول مطلقاً أن تهبط مصر المتحضرة الراقية ذات النظامات الأهلية والمدنية ، وذات المعابد والهيأكل العاصرة ، وذات النظام الكهنوتي الكبير الاثر ، من ذروة المجد إلى حضيض الذلة والانكسار أمام غزو الهكسوس ، وهم اعراب من أهل البادية ما عرفوا مدنية ولا ذاقوا للنظام طعماً ، ويكون انكسارهم وفناء صورهم المدنية التي عاشوا في ظلها

راجع إلى لضوب قوة الابتكار فيهم ، بين يوم وليلة !!! إن هذا القول لبعيد جهد البعد من المعقول ، فضلاً عن أن العلوم الحديثة في النشوء لا تؤيد ، بل تؤيد ما يذهب إلى عكسه على خط مستقيم .

أما يكون في مثل هذا القول كثير من الحق والصواب إذا نحن رجعنا إلى نظريات كمون الصفات الفطرية في الشعوب إذا هي تأثرت بحجج مشبع بمسيدات المدنية . وأية مفسدة من مفسد الحياة الانسانية اقصى تأثيراً على الشعوب من غاز أجنبي جاهل لا يعرف إلا القوة ولا يلجأ إلا للقوة في شعب ما عرف للقوة في نظامه من أثر ، ولا عرف لغير النظام في حكومته من مبدأ ؟ والدليل القاطع على صحة هذه النظرية ان مصر لم تلبث ان تطرد الهكسوس من بلادها حتى ازهرت بغد هم المدنية . وما إزهار هذه المدنية في الواقع بشيء يستعصى تعليله ، إذا عرفنا أنه عائد مباشرة إلى نشاط الصفات المدنية مرة أخرى بمد أن ذهب تأثير الغزو الاجنبى وتطهر الجو الذى لا يمكن أن تنشط في غيره .

كذلك إذا نظرت في مجمل تاريخ مصر منذ زمان « مينا » إلى زمان الغزو الرومانى . فانك تجد أن تاريخ هذا الشعب كان عبارة عن دورات من العزة والانكسار ، والنصر والاندحار ، متعاقبة متتالية ، على قصر فترات الزمان ، والشعب المصرى هو هو ، لم يتغير فيه عنصر ولا نقصت فيه صفة . فهل يمكن أن يكون ذلك راجع إلى فقدان الصفات الطبيعية التى اختص بها الشعب المصرى كما يوهمنا البعض فى هذا الزمان قضاءً لما رُب خاصة ، أو يأساً من طول مآمنينا به من مفسد الغزو الاجنبى ؟ كلا . أن ذلك راجع لدى الواقع إلى كمون الصفات المدنية والمؤهلات العقلية تبعاً لتفساد الجو الذى يحيط بها . على أننا لا ننسى مع هذا أن طول الزمان الذى تكمن فيه الصفات المدنية يجعل عودتها إلى النشاط أعسر ، ورجوعها إلى العمل أوعر ، وانهاضها محتاجاً إلى كثير أو قليل من الجهد على مقتضى الحالات .

وما السبب فى هذا ! السبب فيه أن كمون الصفات المدنية ازمناً طويلاً عامل من أكبر العوامل فى تحليل المنظمات التى تقوم عليها المدنية . لهذا يكون

للجهد مضاعفاً عند قيام مدنية أخرى لشعب فقد مدنيته لانه يكون محتاجاً إلى إعادة بناء النظمات المدنية أولاً ، ثم صبغها من يد بالصبغة التي تستمد مباشرة من صفاته الطبيعية .

وليس يقتصر استشهادهنا على هذه النظرية بأمثال تقطعها من تاريخ مصر وحده . فلديك مملكة مقدونيا وهي من أصغر ممالك الارض عدة وعدداً . ففي عصر الاسكندر المقدوني خرجت من ظلمات التاريخ الى وضوح الحياة بعد سنين معدودات من حكم فيليبس وابنه الاسكندر ، فدوخت العالم وفتحت كل بلاد المدنية في ذلك العهد . وما لبث ان مات الاسكندر وتجزأت من بعده امراطوريته العظمى بين كبار قواده حتى خبت تلك الجذوة التي اشعت في مقدونيا وما عثمت ان كمنت قواها مرة أخرى ، لما انتشر في جو المدنية من المفسدات ما تعذر معه على تلك الصفات أن تظهر وتنشط في صور الحياة العامة

واذا شئنا أن نعدد لك من الامثال ما يؤيد هذه النظرية لذهبتك في سلسلة طويلة من الوقائع التاريخية التي تؤيدها في التاريخ القديم

٣ - في التاريخ الحديث

ولا تصدق هذه النظرية على التاريخ القديم وحده ، ولا هي وقف على الامم القديمة وحدها . بل هي نظرية يمكن أن تنزع من وقائع التاريخ الحديث ما يؤيدها ويزيدها قوة وثباتاً

هل تستطيع مثلاً أن تعال السبب في ان أمة اليابان قد نشأت بزيادة كبرق يأتق في ظلمات الليل البهيم ، فتبرز في خمسة عقود من الزمان لا تتجاوز النصف قرن ، كل امم الارض على وجه التقريب رقياً ومدنية ، وتناظرها قوة وسلطاناً ، وكانت من قبل احدى الامم الصغراء التي لا يعمل لها في عالم المدنية حساب ولا يقيم لها وزن ؟

طافت احدى المدرعات الامريكية بقيادة الاميرال « بيرى » وقد سددت مدافعها الضخمة إلى إحدى المدن اليابانية القائمة على شاطئ المحيط الهادى ، فانزعجت بنخامتها أهل اليابان المستكيننة الذليلة ، ومن ثم اخذت الأمة اليابانية

تضرب في مجال الرقي العملي وتبنى على اتقاض مدنيها القديمة مدنية حديثة
تكد تزي بمدنية باريس، عروس مدائن الدنيا المتعدية ! فهل يمكن أن
يكون منظر هذه الدارعة وحده هو الباعث على أن تهب اليابان هبتها التي
كان من نتائجها أن تضرب الدب الروسي ضربتها القاضية ويخطب وددا الآن
الاسد البريطاني؟ كلا، لا بد من أن يكون الجو الذي افسد جو المدنية اليابانية
خلال الازمان الأولى قد تظهر من مفسداته التي كانت تعوق صفات أهلها
عن أن تنبعث في سبيل النهوض . وقل بعد ذلك ماشئت . قل أنه تظهر باللقاح
او قل إنه تظهر بالعظة البالغة أو بتحرك شهوة السيادة في قلوب الزعماء .
قل ماشئت . ولكن اعتقد بجانب هذا أن صفات الشعب الكامنة قد تحركت
فغيرت من أساليب الفكر وجددت من شباب الفن والادب، فكانت المدنية
اليابانية قائمة على أساس الصفات والمؤهلات التي تركزت في طبيعة الشعب
الياباني منذ اقوم عصوره حتى اواخر القرن التاسع عشر .

ثم انظر في ايطاليا وقد تقاسمتها السلطة البابوية من جهة ودولة النمسا من
جهة اخرى . وارجع الى الميراث الذي خرجت به القبائل الايطالية في القرون
الوسطى ، وعد قليلا الى ذكرى المفاسد التي ايدتها الكنيسة والاستبداد
الذي حلل اخلاق ذلك الشعب اللاتيني من طريق استبداد الامراء . اذكر
كل هذا وسائل نفسك هل يمكن ان يكون الشعب الايطالي قد فقد كل
صفاته الطبيعية في تلك الازمان الذي مضى خاضعاً فيها لعسف الامراء من
جهة ، واستبداد اهل الدين من جهة أخرى ؟ واذا سلمت بهذه الفكرة
فكيف تعامل نهوض هذا الشعب بعد ان فاز كافور في ميدان السياسة،
وجاري بالدي في ميدان الحرب ، باستقلاله وحرية ؟ لا جرم اننا لا نكون
ابعد عن الهدى منا اذا سلمنا بهذه النظرية . اما الحق فان صفات الشعب
وقدرته على ابتكار الاساليب الجديدة قد كمنت عندما حووطها من المفاسد
ما جعل كمنها لازماً . فلما تظهر الجو انبعثت الصفات الكامنة من مرقدتها
ومضت تسير بالشعب الايطالي في مدارج الرقي دفعة واحدة، كأن لم يكن
استبداد حلل اخلاق الشعب، وكأن لم تكن مذهبية شنيعة استعانت بها
الكنيسة على اخضاع ايطاليا لوحى الآخرة

وكذلك اذا أردنا أن نضرب لك الامثال على صحة هذه النظرية منتزعة من التاريخ الحديث . فاننا نذهب بك في سلسلة طويلة لا حاجة لنا بها بعد الذي أدينا اليك به من البحث .

٤ — أسباب وتائج

وليس السبب في كحون الصفات محصوراً في الغزو الاجنبى أو استبداد الامراء . فان هذه الاسباب قد تكون ذاتية أى آتية من ناحية الشعب نفسه ، كما يمكن أن تكون خارجية مفروضة عليه الزاماً بحكم خارج عن إرادته . ففي عصور الانقلاب والثورة يظهر الزعماء الذين يقودون الجماهير ، وينزوى ذوو العقول الفذة الذين هم في الواقع قمة الهرم الذى يكون مجموع الأمة . وفي هذا سبب من أكبر الاسباب التى تكمن معها الصفات المدنية الصحيحة اذ ينتفى بذلك أن تكون حرية حققة في عصر تسود فيه الجماهير .

وكذلك الحال في العصور التى تنتشر فيها أفكار جديدة يأخذ الناس وهجها الكاذب ويبرهنهم زخرفها الخلاب . فان هذه الظاهرة كثيراً ما تكررت في عصور المدنية اذ هى تسير بقدم نابذة ، فزلزلت من تحتها قائم الدعائم وفشت من حول المدنية قوى التشييد لتصرف حيناً الى الفساد الذى تبثه فكرة خاطئة أو مذهب غير قويم .

هذه الامثال وغيرها كثير نضربها لذلك بها على أن فساد وجود المدنية قد يرجع الى أسباب تستمد من نفسية الشعوب ، كما تعود الى أسباب قاهرة مفروضة عليها بحكم ارادة غير ارادتها . ولا جرم أن العجز عن تغيير اساليب الفكر يقتضى فساد المدنية . فهذا العجز لدى الواقع دليل على أنه فساداً اتاب المدنية ، لا على أن الامم التى عجزت عن تغيير أساليبها لتساير المتمدنين ، قد فقدت كل صفاتها المدنية وأضاعت كل قدرة على أن تسير خطا الارتقاء .

تتخصص المؤهلات القومية في مجموعها في القدرة على تغيير أساليب الفكر والمعتقد على حسب ما تتطلب الظروف وما تقتضى الحاجات فالمؤهلات القومية هي لدى الواقع الاصل في الصورة التي تتصور بها المدنية ، والقالب الذي تصب فيه حضارة امة من الامم . ومن هنا كانت تلك الخلافات الشديدة التي تبين فيها أمة أخرى في التكوين المدني ولا جرم أننا لا نستطيع ان نقيس المدنيات بمقياس يتخذ قاعدة للحكم على المدنيات . ذلك لان هذا القياس لا بد من أن يكون مبدأ تترف كل الامم بانه امثل الاعلى للمدنية . ولا شك في أن الباحثين لم يتفقوا على مثل أعلا يتخذ للمدنية قياساً يقاس عليه . لهذا وجب علينا أن نرجع الى الصور الظاهرة في المدنية أجلي ظهور ونحكم من ناحيتها في صور المدنية ، فنقتضى لهذه الصورة أو لتلك على مقتضى ما تظهر الامم من قدرة على مسايرة مقتضى الحالات التي تجود في أفق الاجتماع الانساني . ولا شبهة عندى في أن المقياس الحقيقى ينحصر في قدرة الامم . على تغيير أساليبها التفكيرية والاعتقادية ، لان ذلك في الواقع دليل على مرونتها وتقبلها لمختلف الأساليب التي يمكن أن تفوز منها بأسلوب يمهدها سبيل التفوق فى ناحية بعينها من نواحي المدنية .

٦ - النشاط والكمون في طبائع الامم

غير أن النشاط والكمون في الامم تختلف نسبته . فهناك أمم سريعة الانبعاث الى النشاط ، ولكنها بجانب هذا تكون سريعة الانكماش والكمون . وأمم أخرى بطيئة النشاط تدرجية السير في بناء المدنية ، ولكنها بجانب هذا تكون بطيئة العودة الى الكمون . والمصريون ولا شبهة مثال الطابع الاول والانجلوسكسون مثال الطابع الثانى . ولا يفوتنا هنا أن نقرر أن الشعب الانجلى من أبطأ الشعوب التى ظهرت فوق الارض نشاطاً الى المدنية ، ولكنه سيكون من ابطئها رجوعاً الى حالة الكمون .

ولا شبهة عندى مطلقاً في أن هذه الظاهرات تدل على مقدار ثبات الصورة المدنية وانحلالها على مقتضى ما يكون للشعب الذى يصورها من سرعة

النشاط أو الاستكانة والكون . فليك شعوب عاشت عصوراً طوالا وهي
عائمة على صورة بعينها من صور المدنية ما أثر فيها مؤثر خارجي أو ذاتي
الا وتغلبت صفة الثبات القائمة فيها والمستمدة من صفات الشعب الذي
صورها على كل عوامل الانحلال التي انبعثت في عصر من العصور . ولديك
شعوب أخرى توالى عليها دورات النشاط والثبات ، كأنها على مسرح من
مسارح الألعاب الذي تقاس فيه أعمار الناس بالساعات لا بالسنين والاجيال
وهذه الظاهرات تدل دلالة واضحة على ان الصفات الاصلية في الشعوب
لن تموت ولن تنحل ولكنها تكمن حيناً لتظهر مرة أخرى لاية صورة مدنية
جديدة تنصب في القالب الذي تسمح به ظروف الحالات الاجتماعية والمدنية
٧ - مصر في الميزان .

ان المقدمات التي قدمنا بها في هذا المقال يمكن تطبيقها على حالة مصر
الماضية والحاضرة . ولست اريد بما ضربت من الامثال التاريخية ان اقع في
خطأ أكثر مما وقع فيه الكاتبون . لا اريد ان استدل بالماضي على الحاضر ، بل
اريد ان استدل بالحاضر على الماضي . ذلك لاني اعتقد اعتقاداً جازماً بأن
الحاضر هو مفتاح الماضي وان عكس ذلك غير صحيح . انما سقت ما سقت
من الاستشهادات التاريخية على اعتبار انها وقائع ما قصدت بها مطلقاً ان
اطبق الماضي على الحاضر بل استدلالاً اردت من طريقها ان اثبت من ناحية
ما صح في التاريخ بطريقه ومن ناحية أخرى صحة نظرية اعتنقها وادافع عنها .
لقد ظلت مصر ازماناً طويلة مصدودة عن ان تهبط الى صفاتها الكامنة جواً
تستطيع ان تنشط فيه وتكون من طريق نشاطها الذمعي مدنية تصبحها في
القالب الذي تصل بها اليه مؤهلاتها .

اما اذا رجعت إلى المسألة السياسية المصرية فانك تقع فيها على ما يؤيد
هذه النظرية بما لا سبيل الى ادخاله باية طريق من طرق التدليل . فان
صيحتنا للحرية والاستقلال على ما يعتورها من النقص وعلى ما يحف بهما من
الضعف في بعض الاحيان لدليل ناطق وبرهان حي على ان صفاتنا الكامنة
قد أخذت . تنشط من عقال القرون وان قدرتنا على تقبل الاساليب الجديدة

أخذت تفكرك تلك القيود التي صدرت عن الانبعاث في سبيل التقدم القرون الطوال . وعندى ان هذه الظاهرات في مجموعها راجعة الى ان الجو الذي يمكن ان تنشط فيه صفات الشعب المدنية قد تطهر بعض الشيء مما تراكم فيه من غبار الاستبداد والعسف وزوال النظمات العتيقة التي من شأنها أن تعقل الفكر وتصد موجة النشوء، عن ان تبعث الصفات الكامنة لتنشط وتؤتي ثمراتها الطيبة .

لهذا لا ندعو الى تغيير أساليب الفكر . فان هذه الدعوة في ذاتها خطأ محضاً . ذلك لاننا اخذنا بالفعل تغير من اساليبنا الفكرية على الرغم مما يصدرنا عنها من العقبات . بل ندعو الى توجيه الفكر في طريق يجعل اختياره للاسلوب الحديث الذي يعكف عليه قائماً على الحرية التامة وعلى قدر ما تقبل مؤهلات الامة الكامنة في العصر الحاضر .

يكفيانا الآن ان نعمل على تحرير الفكر ليكون اختياره للاسلوب الذي يرضاه غير مقيد بشيء مما تقيد به خلال العصور الاولى .

فالى الحرية ندعو والى حرية الفكر على الاخص نعمل قانعين بان العمل في هذه السبيل هي خير ما توجه فيه الامة نهضتها الحديثة .

اسماعيل مظهر

لا تقطفها

لا تقطفها قرب زهر يحنو عليها ويرتجفها !!
لا بد من عاشق رواها بدعه واستهم فيها . . .

* *

أخاف ثأر الزهور منا إن جئت يوماً لتقطفها
أخاف أن يعتمدى غبي يفرق الأخت عن أخيها

* *

تأملها تسبي عقولا للحسن تصبو تأملها
الحسن فيك يزيد عنها لا تقطفها !! لا تقطفها !!

حسن كامل الصيرفي